بلاغة الجمهور وتحليل الخطاب السياسي

بحث في البلاغة المُهمَّشة

حوار مع الدكتور عماد عبد اللطيف



تقديم :

الدكتور عماد عبد اللطيف باحث مصري، بدأ اسمه يسطع في سماء البلاغة العربية الجديدة. استطاع أن يشق لنفسه مساراً خاصاً به، يحكمه هاجس ربط البلاغة بتحليل الخطاب السياسي الجماهيري، ودراسة ما يُطلق عليه : «بلاغة الجمهور». ونظراً لخصوصيات هذا المسار ارتأت مجلة البلاغة وتحليل الخطاب أن تستضيف الباحث لتسلط الضوء على مشروعه العلمي، وتثير معه بعض الأسئلة التي تشغله، تقديرا لما راكمه في مجال البلاغة وتحديثها، وهو الأمر الذي مكنه من نيل عدة جوائز من بينها: جائزة أفضل كتاب عربي في العلوم الاجتماعية سنة 2013، وجائزة جامعة القاهرة للنشر الأكاديمي الدولي في دوريات عالمية لها معامل تأثير (Impact Factor) سنة 2012، وجائزة المهاجر العالمية في الفكر والآداب والفنون في أستراليا سنة 2011، وجائزة طه حسين في الدراسات اللغوية والنقدية في مصر والعالم العربي سنة 2010، وجائزة دبي الثقافية في فرع الحوار مع الغرب دورة 2008-2009.

والأستاذ عماد عبد اللطيف باحث في البلاغة وتحليل الخطاب في قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة. ويعمل حاليًا بقسم اللغة العربية بجامعة قطر. درس في جامعة لانكستر البريطانية، واستضيف أستاذًا زائرًا في جامعة كامبريدج. وهو عضو الهيئة الاستشارية لدورية Al-Arabiyya Journal التي تَصدر عن الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية، ودورية اللسانيات وتحليل الخطاب المغربية، ودورية الخطاب الجزائرية، ودورية جامعة كيرالا الهندية. له عدة إصدارات، منها :

1 – كتب :

– الخطابة السياسية في العصر الحديث : المؤلف، الوسيط، الجمهور، دار العين، القاهرة، 2015.

– تحليل الخطاب البلاغي : دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، دار كنوز المعرفة، عمّان، 2014.

- بلاغة الحرية : معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، دار التنوير، بيروت-القاهرة-تونس، 2012.
- استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2012.
- البلاغة والتواصل عبر الثقافات، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2012.
- لماذا يصفق المصريون ؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن، دار العين، القاهرة، 2009.
- ضد البلاغة : الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون، (كتاب جماعي)، تحرير عماد عبد اللطيف (قيد الطبع، عن دار رؤية، مصر).

2 - بحوث بالعربية في دوريات محكّمة :

- «بلاغة المخاطَب : البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته»، ضمن كتاب المثقف ودور السلطة، 2004، جامعة القاهرة، ص 7-36.
- «البنية الاصطلاحية للالتفات : تشكُّلها وتحليلها»، مجلة دراسات مصطلحية، المغرب، عدد 5، 2005، ص 105-144.
- «التأريخ عبر الاستعارة : مصر قبل الثورة في خطب الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات»، مجلة كلية الأداب، جامعة القاهرة، مجلد 67، عدد 1، 2007، ص 65-99.
- «موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس»، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلد 5، عدد 3، 2008 ص 227-244.
- «بيان التنحي وذاكرة الهزيمة : مدخل إلى التحليل البلاغي للخطاب السياسي»، مجلة ألف في مجلة البلاغة المقارنة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عدد30، 2010، ص 146-175.
- «حروب بلاغية : مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة»، مجلة ألف في البلاغة المقارنة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عدد 32، 2012، ص 283-311.
- «تحليل الخطاب : بين بلاغة الجمهور وسميائية الأيقونات الاجتماعية»، مجلة فصول ، عدد 83-84. 2013، ص 509-530.
- «تحليل الخطاب التراثي : إطار نظري ونموذج تطبيقي»، مجلة الخطاب، الجزائر، عدد 14، 2014، ص 187 -216.
- «تحليل الخطاب السياسي في العالم العربي : التاريخ المناهج الأفاق»، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب، عدد 6، 2015، 111-130.

3 - كتب مؤلفة بالاشتراك (بالعربية) :

- قاموس الشخصيات الإفريقية البارزة، جامعة أكسفورد (بالإنجليزية)، 2011.
- دائرة المعارف الإسلامية، جامعة ليدن، (بالإنجليزية)، 2011.
- البلاغة والدراسات البلاغية، دار العلم والإيمان، القاهرة، (2010). ص 295-308.

4 - كتب مترجمة :

- الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر، تأليف ميشال دوريتشر دون، ترجمة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، 2011.
- الاستعارة في الخطاب، تأليف إيلينا سامينو، ترجمة عماد عبد اللطيف وخالد توفيق، المركز القومي للترجمة، 2013.
- شعرية المكان في الرواية العربية الحديثة، تأليف مجموعة باحثين، ترجمة عماد عبد اللطيف ونهى أبو سديرة، المركز القومي للترجمة، 2014.
- موسوعة أكسفورد في البلاغة. تحرير توماس سلوان. ترجمة ومراجعة مشتركة وتقديم عماد عبد اللطيف. (قيد النشر)، المركز القومي للترجمة
- ضد البلاغة : الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون، (كتاب جماعي)، تحرير عماد عبد اللطيف (قيد الطبع، عن دار رؤية، مصر)./.

الحـــوار :

○ سؤال : بداية، نرحب بكم الأستاذ عماد عبد اللطيف، ونشكركم على قبول دعوة المجلة لإجراء هذا الحوار معكم، وأنتم أحد الوجوه الشابة الحاملة للواء تجديد البلاغة. نبدأ معكم بسؤال : ما حال البلاغة اليوم، في مختلف مدارسنا وجامعاتنا العربية ؟

● جواب : أود قبل أن نبدأ حوارنا أن أشكركم على هذه الدعوة الكريمة، وأن أحييكم على الجهد الكبير الذي تبذلونه في مجلة البلاغة وتحليل الخطاب. وسعادتي بالغة بأن أكون ضيف حوار هذا العدد.

تبدو لي البلاغة العربية اليوم أشبه بامرأة ذات وجهين؛ إذا نظرت إلى الأول رأيت عجوزاً أوهنها الزمن، وأبلتها الأيام، تنكفئ على نفسها مطأطأة الرأس، تقتات الذكرى، وتلوك صدى الأزمان الغابرة. لكنك إن انتقلت إلى جانب وجهها الآخر رأيت غادة حسناء في ريعان الفتوة والنضارة، تتطلع باسمة إلى مستقبل واثق، وأفق مفتوح. ولكي أزيد هذا التشبيه التمثيلي وضوحًا أدعوك إلى ملاحظة الهوة الكبيرة بين واقع تدريس البلاغة العربية وواقع دراستها. فما تزال أنفاس بلاغة السكاكي بشروحها ومتونها وحواشيها، تملأ قاعات تدريس البلاغة من المحيط إلى الخليج، وتستولي سطورها على معظم صفحات الكتب المدرسية. لكن ملامح البلاغة تتغير جذرياً حين ننظر إلى المنجز البحثي العربي على مدار العقود الماضية، فحين نطل على عناوين الأطروحات الجامعية، أو البحوث في الدوريات أو الكتب الأكاديمية، نجد نضارة وشباباً وتوهجاً؛ إذ الانفتاح على بلاغات راهنة، والكفاح من أجل المعاصرة، على مستوى أسئلة العلم، ومناهجه، ومدوناته.

بالطبع، لا يبدو التفاوت بين الوجهين بهذا الوضوح في كثير من الأحيان؛ فهناك تجارب تعليمية متميزة تربط تدريس البلاغة بواقع البحث فيها، وبحاجات المجتمع، كما أن هناك مئات البحوث البلاغية التي لم تبرح بعد آفاق القرن الثامن. لكن الملاحظة العامة تظل صحيحة؛ وهي أن تطور البحث البلاغي يسير بوتيرة أسرع وأشمل من تطور تدريسها. وما لا تخطئه العين هو أن ثمة مساهمات متنوعة لتأسيس بلاغة جديدة؛ تُقدم تصورات جديدة لطبيعة العلم، ووظائفه، ومادته، ومناهجه. هذه المساهمات تستحوذ على مساحات متنامية من الدرس البلاغي، ويكاد بعضها يتحول إلى مشاريع علمية مكتملة.

○ سؤال : المتأمل في أعمالكم، يلاحظ كثرة مؤلفاتكم وغزارة ترجماتكم في مجال البلاغة، هل يمكن تقريب مشروعكم العلمي والأسس التي يقوم عليها لقراء المجلة ؟

• جواب : لقد حاولتُ على مدار العقدين الماضيين أن أؤسس مشروعًا لتحديث البلاغة العربية؛ يقوم على ثلاثة محاور ؛ هي، أولاً، مراجعة أسس علم البلاغة ؛ من حيث وظائفه، ومادته، وتاريخه، وجمهوره؛ وثانيًا، مراجعة أداوت العلم؛ من حيث لغته ومناهجه؛ وثالثًا، مراجعة علاقة العلم بمحيطه المعرفي. واتخذ المشروع خمس مسارات متساندة : الأول اقتراحُ توجُّه جديد في البلاغة العربية، هو بلاغة الجمهور؛ يُعنى بدراسة استجابات الجماهير في الفضاءات العامة، مع التركيز على الفضاءات الافتراضية؛ والثاني : النظر في المادة البلاغية المدروسة؛ بهدف الانفتاح على خطابات الحياة اليومية، وتحليل مدونات متعددة العلامات، والاهتمام اهتمامًا خاصًا بالتحليل البلاغي للعلامات غير اللغوية في التواصل ؛ مثل الهتاف والتصفيق.

يتضمن المسار الثاني - أيضًا - مراجعة مناهج التحليل البلاغي، من خلال ترسيخ المقاربة النقدية للخطابات البلاغية؛ سعيًا لاستكشاف آليات التلاعب والهيمنة والتضليل في هذه الخطابات وتعريتها، وكذلك إعادة الاعتبار لبعض إجراءات المقاربة المعيارية؛ خاصة في إطار بلاغة الجمهور، حيث تكتسب البلاغة وظيفة أخلاقية بواسطة تقديم معرفتها للمخاطَبين المعرضين لأشكال التلاعب والتضليل.

يختص المسار الثالث بالنظر في وظيفة علم البلاغة. وقد حرصتُ على الاهتمام بالوظائف الحياتية للبلاغة، ومن هنا جاء انشغالي بالخطابات الجماهيرية؛ وذلك سعياً إلى تعزيز قدرة الأفراد العاديين على إنتاج خطابات إقناعية مؤثِّرة تخلو من التلاعب والتمييز والهيمنة، وإنجاز استجابات بلاغية فعَّالة، وتشكيل وعي نقدي بآليات الخداع البلاغي، وإنتاج ممارسات بلاغية حُرَّة، وتدعيم الكفاءة التأويلية والتفسيرية للمواطن العادي.

أما المسار الرابع فأسعى فيه إلى إعادة النظر في جمهور علم البلاغة؛ وقد حسمتُ مبكرًا أحد أهم الأسئلة التي أرقتني، وهو : لمن أكتب ؟ وانحزت إلى أن القارئ العام لا بد أن يشكل شريحة من جمهور البلاغة بالإضافة إلى الباحثين والمتخصصين. وهو ما تطلّب سعياً دؤوباً لتقريب نتائج علم البلاغة إلى القارئ العام، من خلال تبسيط لغة العلم، وتوضيح أفكاره، وإتاحتها عبر منافذ جماهيرية؛ مثل الصحف اليومية، والمجلات، ووسائط التواصل الاجتماعي.

وحاولتُ في المسار الخامس مراجعة جذور علم البلاغة، واستكشاف بلاغات مهمّشة وإلقاء الضوء عليها؛ وقد ركزتُ على ثلاثة مجالات؛ الأول استكشاف بلاغات قديمة؛ مثل البلاغة في مصر القديمة والهند والصين، وتقديم مقارنات أولية بين مبادئها ومبادئ البلاغتين العربية واليونانية، وهو مشروع لم أنجز فيه إلا مقالةً مؤلفةً وبحثاً مترجماً. المجال الثاني حظي باهتمام أكبر، وهو التلقي العربي لبلاغة أفلاطون، وقد حررتُ كتاباً سيكون متاحاً في معرض الدار البيضاء المقبل يُعالج هذه المسألة معالجة معمّقة وشاملة. والثالث هو إعادة كتابة تاريخ تحديث

البلاغة في القرن التاسع عشر، وقد أوشكتُ بالفعل على الانتهاء من تأليف كتاب عن هذه الحقبة المهمة؛ يُقدّم كتابات شبه مجهولة، ويعيد لتلك الفترة تقديراً مستحقًا. بالإضافة، بالطبع، إلى المساهمة في توفير المصادر والمراجع الأجنبية الأساسية في البلاغة العربية للقارئ العربي عبر التراجم أو المراجعات النقدية؛ وسوف تتاح قريبًا الترجمة العربية الكاملة لموسوعة أكسفورد للبلاغة التي شرفتُ بالمشاركة في ترجمتها ومراجعتها وتقديمها.

○ سؤال : بناء على جوابكم هذا، هل تترقبون للبلاغة العربية، بمعناها الجديد، مستقبلاً واعداً، وهي أسُّ مشروعكم العلمي ؟

● جواب: «على المرء أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح»، هذه حكمة ضرورية في الحياة. وأظن أن المؤشرات في الوقت الحالي مبشرة على نحو كبير. فهناك كتابات متزايدة حول التوجه الذي أقترحه لدراسة «بلاغة الجمهور» في المغرب والجزائر والعراق ومصر، وهناك أطروحة جامعية عراقية تُنجز الآن حولها. لكن ربما كان النجاح أكبر فيما يتعلق بربط البلاغة بخطابات الحياة اليومية، وبخاصة الخطاب السياسي العربي المعاصر؛ إذ تمثل أعمالي في هذا الميدان عُدّةً مُعينة لكثير من الباحثين.

بالطبع فإن الحكم على مستقبل البلاغة الجديدة متروك للزمن، ولحكم الآخرين؛ فغالبًا ما يُخطئ المرء في تقدير أهمية ما يقدمه؛ فقد يراه في مرآة محدبة أو مقعرة، فيقع في المبالغة أو التهوين. لكن دعني أشير إلى أمرين ؛ الأول أن فرص نجاح المشاريع المعرفية الفردية في زمننا الحالي ضعيفة عموماً، وتقوى فحسب حين تتكاثف جهود فريق من الباحثين حول الفكرة، ويعملون فيها بشكل جماعي. ولدي بشأن هذه الملاحظة تجربة أراها رائعة، هي تجربتي مع فرقة البحث في البلاغة وتحليل الخطاب في جامعة عبد المالك السعدي المغربية، من خلال العالم الصديق الدكتور محمد مشبال. فقد تحمس الدكتور مشبال لمشروعي في تحديث البلاغة منذ تعرف عليه في بواكير عام 2005، بما حفزه على دعوتي للقاء طلابه أكثر من مرة، والمشاركة في مناقشة أطروحة دكتوراه لأحدهم عام 2010. وعلى الرغم من أن مشروعي لم يكن يتقاطع حينها مع اهتماماته الأكاديمية الأساسية المنشغلة بالتراث القديم، وبالخطاب الأدبي تحديدًا، فقد حمل على عاتقه عبء المساهمة في تحقيق طموح ربط البلاغة العربية بخطابات الحياة اليومية، ونظّم بنجاح ثلاث ندوات دولية؛ عالجت العلاقة بين البلاغة وتحليل الخطاب، وبلاغة الخطاب الديني، وبلاغة الخطاب السياسي؛ وهي جميعًا من المحاور الأساسية التي ينطوي عليها مشروعي في تطوير البلاغة.

الملاحظة الأخرى تخص التعلّم من خبرة الماضي. لقد شهد العالم العربي على مدار القرن والنصف الماضيين عشرة مشاريع لتحديث البلاغة على الأقل. ومن الضروري التفكير في مآلات هذه المشاريع. ومنذ عامين، أدرسُ هذه المشاريع، لا سيما المنجزة في القرن التاسع عشر، والتي تقع خارج خريطة تاريخ تحديث البلاغة العربية. والدرس الأساس الذي أستخلصه منها هو أن مشروعًا لتحديث البلاغة لن يؤتي أكله إلا إذا توفرت فيه مجموعة من الشروط؛ أهمها أن يتحول بالفعل من دعوى مرسلة، وطموح مطلق، إلى مشروع محدد منضبط وواقعي؛ تتعاضد فيه صلابة الأساس النظري مع تنوع التطبيقات العملية؛ ويسعى لتوثيق صلته بالتراث عبر إعادة قراءته، وبالواقع عبر الاستجابة لتحدياته؛ ويصنع تحالفات معرفية مع حقول معرفية وثيقة الصلة؛ ويُفلح في النفاذ إلى قاعات الدرس متجاوزًا حدود دفات الكتب. وحين أقارن ما أُنجز في مشروع بلاغة الجمهور ومشروع دراسة البلاغة السياسية، وخطابات الحياة اليومية، أجد أن الطريق لا يزال طويلا. ومع ذلك، فإنني أعتقد أن السنوات المقبلة سوف تشهد اهتمامًا متزايدًا به؛ وذلك لأن هذا المشروع يتسم بدرجة عالية من المرونة، وقابلية النقد والاختلاف، ولا ينطوي على نزعة محلية، مثلما كانت عليه الحال في مشاريع أخرى بائدة.

- سؤال : أنتم من حملة مشعل تجديد البلاغة العربية بعد رواد أوائل، من أمثال : محمد العمري وحمادي صمود، وآخرين، انطلقوا من عملية تشخيص للبلاغة العربية تتقاطع مع ما ذكرتموه أعلاه. ما علاقة مشروعكم بالمشاريع البلاغية العربية المؤسِّسة؛ ما نقط الالتقاء والاختلاف ؟ وما الجديد الذي يقترحه مشروعكم ؟

- جواب: المعرفة تراكمية في طبيعتها، وكل معرفة معلّقة في الهواء، مصيرها الزوال مع أضعف هبة ريح. والمشروع الذي أسعى لتقديمه هو، بشكل أو آخر، امتداد لمشروعات سابقة، يتكئ عليها، ويضرب بجذوره في متونها. وقد أشرتَ إلى مشروع د. محمد العمري في سؤالك، وأظن أن ما قدمتُه من أعمال يتقاطع في بعض جوانبه مع مشروع هذا العالم الجليل؛ مثل الاهتمام بأنواع لم تُدرَس في العصر الحديث دراسة كافية كالخطابة، والسعي نحو إدراج البلاغة في المجال العام، من خلال تحليل بعض الخطابات العامة، لا سيما الخطاب السياسي. لكن مساحات الاختلاف تبدو شاسعة ؛ فقد حاولتُ توسيع مجال البلاغة في عمومها عبر استكشاف آفاق غير مطروقة عربيًا؛ مثل البلاغة عبر الثقافات، والبلاغة في الفضاء الافتراضي، وطرق إنتاج البلاغة العمومية. وفي حين قدم الدكتور العمري إعادة قراءة ثاقبة للمتون المركزية في التراث البلاغي، فإنني توجهت إلى دراسة المتون المهمّشة مثل البلاغات القديمة قبل اليونان، وبلاغة أفلاطون، وبلاغة القرن التاسع عشر. علاوة على ذلك، فإن اهتمامي الأكبر يتوجه بالأساس إلى تحليل مدونات حديثة ومعاصرة، وليس إلى نصوص التراث. وفي حين

يركز مشروع د. العمري على الخطابات العليا فإن مركز اهتمامي هو خطابات الحياة اليومية، واستجابات الجمهور، التي لم تُدرك طوال تاريخ البلاغة على أنها مادة جديرة بالبحث البلاغي. وعلى نحو مشابه، فإنني أدرس - غالبًا - مدونات متعددة العلامات، وأجمع بين تحليل اللغة وتحليل الأداء، وسياقات التداول والتلقي، محاولاً توظيف وتطوير منهجيات مستمدة من أدبيات أنجلوسكسونية؛ لتحليل ظواهر مثل التصفيق، والهتاف، وتعليقات اليوتيوب، ورسائل الفيسبوك، وبذاءات الفضاء الافتراضي، وغيرها.

- سؤال : إن إدراجكم للمظاهر التواصلية غير اللغوية المرتبطة بالخطاب، كالتصفيق والهتاف... فضلا عن الشعارات وغيرها في تحليل الخطاب السياسي، يقرب عملكم من مجال السميائيات، فهل يمكن أن تكون السميائيات إمارة من إمارات إمبراطورية البلاغة؟

- جواب : دعني في البداية أعبر لك عن قلقي من استخدام مصطلح «امبراطورية البلاغة»، الذي يصوغ العلاقة بين العلوم استناداً إلى استعارة مفاهيمية هي الهيمنة والتحكم. فأنا أرى أن الاستعارة الأمثل للتعبير عن العلاقة بين المعارف هي استعارة الدوائر المتقاطعة، وهي استعارة هندسية وليست سياسية؛ تتيح التشارك، ولا تنطوي على إيحاء بالهيمنة.

أعود إلى سؤالكم المهم. علينا، أولاً، أن نعترف أن العالم يعيش الآن زمن «العلامات المتعددة» multi-modality ؛ حيث إنه في معظم التجليات الخطابية الراهنة تتجاور الكلمة وتترابط وتتخاصم وتتعارض وتتساند مع الصورة واللون والحركة والإشارة والصوت والنغم .. إلى آخره. وكان ظهور السميائية بوصفها علمًا للعلامات كافة (بما فيها اللغة)، خطوة نحو تعبيد طريق الدرس البلاغي للعلامات غير اللغوية. ثم كانت الروابط القوية بين السميائية وتحليل الخطاب - التي وصلت إلى حد التداخل والاختلاط - انعكاسًا لتشابك العلامات في الخطابات الإنسانية المعاصرة. وليس من المستغرب أن الكثير من الجهد البحثي في البلاغة وتحليل الخطاب في اللحظة الراهنة ينصرف إلى تحليل علامات غير لغوية . كما كان من الطبيعي - لنفس الأسباب- ظهور توجه كامل في إطار تحليل الخطاب معني بالتهجين العلاماتي. وهناك توجه مستقل في الدرس البلاغي وثيق الصلة، وإن كان غير معروف لدينا على نطاق واسع، فقد ظهر في تسعينيات القرن العشرين فرع معرفي بلاغي معني بالصور هو البلاغة المرئية visual rhetoric ؛ حيث تُدرس الفضاءات البصرية، سواء في الواقع الفعلي، أو الافتراضي؛ كما هو الحال في صفحات الإنترنت. وفي الحقيقة فإن الدراسات العربية في البلاغة المرئية ما تزال محدودة، على الرغم من أهمية البحث فيها، خاصة البحوث التطبيقية. ومحاولة تجسير هذه الفجوة أحد اهتماماتي في الفترة المقبلة، وأنا أكتب الآن بالفعل دراسة تقترح منهجاً لتحليل الخطابة المرئية.

○ سؤال : دشّنتم أستاذ عماد لتوجّه جديد في البلاغة العربية يحاول تطوير مقاربة لدراسة استجابات الجمهور للخطابات العامة اعتبرتموها «استجابات بلاغية»، وأطلقتم على هذا التوجه «بلاغة الجمهور». ما الذي يسوّغ اعتبار هذه الاستجابات بلاغية ؟ وما الأدوات التي تُمكّن الباحث من دراستها في أفق بحث بلاغي ؟

• جواب : استجابات الجمهور هي علامات قد تكون لغوية أو غير لغوية، تُنتَج في سياقات تواصل فعلي، وتستهدف إنجاز الإقناع والتأثير. إنها خطاب بلاغي بالفعل، وإن كان غير نمطي. وهو خطاب لم يحظ باهتمام يُذكر على مدار تاريخ علم البلاغة، وما تفعله بلاغة الجمهور هو أنها تحاول ارتياد طريق معاكس للدرس البلاغي التقليدي، من زاوية التركيز على استجابات جماهيرية، مجهولة المؤلف، متعددة العلامات، متداولة في فضاءات عامة مفتوحة، بواسطة مقارنة نقدية تسعى لتعرية التلاعب. أما الأدوات التي يمكن توظيفها في أفق بحثها بلاغيًا فهي شديدة التنوع، بحسب السؤال المعرفي التي تسعى لمعالجته. وقد وظفتُ أطرًا متمايزة في تحليلي لظواهر مثل التصفيق والهتاف والصفير، وتحليلي لتعليقات الجمهور على يوتيوب أو فيس بوك، أو بعض الصحف الإلكترونية.

○ سؤال : كتابكم لماذا يصفق المصريون ؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن؛ عمل تطبيقي على هذا التوجه الذي ذكرناه أعلاه. كيف تمكنتم من إخضاع التصفيق للتحليل البلاغي ؟ وما الخلفية النظرية التي اعتمدتموها لإجراء هذا التحليل ؟

• جواب : التصفيق علامة غير لغوية، لها مدى زمني، ودرجة شدة، وارتباطات معقدة مع بناء النص وأدائه، وسياق تلقيه. وإخضاعها للتحليل البلاغي يُنجَز عبر الكشف عن العلاقات بين هذه العناصر المختلفة. فقد حاولتُ استكشاف العلاقة بين التصفيق وبناء النص وطرق أدائه، وطبيعة الجمهور الذي يتلقاه، والسياق الذي يُتداول فيه. كما عالجت ارتباطه بظواهر أخرى مثل الهتاف والصفير. وتبدأ عملية التحليل بجمع بيانات إحصائية حول مواضع التصفيق داخل الخطب المدروسة، وعددها، ومداها الزمني، وشدتها، وكونها فردية أو جماعية. ثم دراسة محفزات كل تصفيقة في السياق الخطابي المحدد الذي أُنتجت فيه، سواء أكانت بلاغية أم أدائية. وبعد ذلك، يُعالج السياق الأوسع الذي يُنتج فيه التصفيق، وبخاصة ما يتعلق بطبيعة الجمهور وعلاقاته بالمتكلم، والأعراف التي تحكم التواصل بينهما.

○ سؤال : استخدمتم في هذا الكتاب المذكور مفهوم «فخاخ التصفيق». ماذا تقصدون به ؟ وما دوره الإجرائي في تحليل الخطاب، هل أي خطاب يصفّق له؟!

• جواب : مصطلح «فخاخ التصفيق» مستخدم في المسرح الغربي منذ القرن الثامن عشر، لكنه استخدم منذ ثمانينيات القرن العشرين في دراسات التواصل السياسي على يد ماكس أتكينسون ليعني مجموعة من التقنيات أو الحيل أو الأساليب اللغوية والبلاغية التي تُصمم لاصطياد التصفيق من الجمهور. غالبًا ما تعمل هذه الفخاخ بشكل غير مباشر، ودون وعي من الجمهور. كما أنها تتكون من مزيج من الفخاخ البلاغية؛ مثل الثنائيات المتقابلة، والقوائم ثلاثية الأجزاء، والصمت المقصود، والمبالغة، والفكاهة، ومداعبة الجمهور؛ والفخاخ الصوتية؛ مثل النبر، والتنغيم، والفخاخ الأدائية : مثل حركات الجسد واليدين. وهناك إجراءات منضبطة لتحليل هذه الفخاخ.

○ سؤال : عملكم هذا يندرج ضمن اختيار بحثي عكفتم على تطويره ؛ هو تقريب البلاغة من خطابات الحياة اليومية. ما خلفيات هذا الاختيار ؟ وهل هذا يعني موقفا ضد الكتابات البلاغية النظرية الأكاديمية وتلك التي تُعنى بالخطابات العالمة ؟

• جواب : بصراحة، نعم كان لدي، ولا يزال، موقف ضد الكتابات البلاغية التقليدية، التي تنظر نظرة احتقار لخطابات الحياة اليومية. ومنذ وقت مبكر، أدركتُ أن واقع انفصال البلاغة عن المجتمع لا يمكن أن يستمر طويلاً، وأن الأجدر بالباحثين الجدد أن يُقبلوا على دراسة بلاغة الخطابات الحياتية؛ لأنها، ببساطة، الأكثر تداولاً وتأثيرًا. ودافعتُ طويلا عن أن دراسة تعليقات الجمهور على إعلان متلفز لكوكاكولا، على سبيل المثال، لا تقل أهمية عن تقديم تحليل بلاغي شامل لمعلقة : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل...، بل ربما تفوقها. وبعد صدور كتابي عن التصفيق عام 2009، تلقيتُ العديد من الانتقادات التي رأت في الكتاب انتقاصاً من شأن علم البلاغة، وتهديدًا لتاريخه المضيء المرتبط بدراسة القرآن والنصوص العليا، ودافعتُ دومًا بأن البلاغة هي علم دراسة الإقناع والتأثير في الخطاب، وأن لا أفضلية لدراسة خطبة رئيس في الأمم المتحدة، على دراسة نداء باعة جائلين في ساحة سوق. ويبدو أن هذا الهدف من أهداف مشروعي في تحديث البلاغة قد لاقى نجاحًا معقولاً، بحسب رأي الدكتور محمد مشبال، الذي كتب منذ عدة سنوات أن «الدكتور عماد عبد اللطيف جعل الدرس البلاغي في العالم العربي جزءاً من انشغالات الإنسان العربي في حياته اليومية، ولابد أن التاريخ سيشهد له بذلك».

○ سؤال : يُفهم من بعض كتاباتكم أنكم تعتبرون علم البلاغة متلازما مع العمران، وثمرة من ثمرات أي تطور حضاري، وهذا معناه أن البلاغة ليست اختراعا يونانيا، بل إن كل الحضارات القديمة، أو أغلبها، عرفت البلاغة باعتبارها علما. هل من توضيح ؟

• جواب : البلاغة بالتأكيد ليست اختراعاً يونانياً، وواقع الاكتشافات الحديثة للمنجز المعرفي للحضارات القديمة في الصين ومصر والعراق وفارس والهند وغيرها، في سبيله إلى الإطاحة بهذا

التصور المتحيز عن تاريخ البلاغة. إذ تتعزز شيئًا فشيئًا فكرة أن البلاغة - سواء بوصفها علماً وتدريباً أو بوصفها إنتاجاً للكلام البليغ - لم تكن اختراعاً يونانياً بأية حال من الأحوال. ومع ذلك، فإن مراجعة التأريخات المستقرة تتم على استحياء شديد، وتواجهها مشكلات عملية أبرزها اندثار الكثير من آثار الحضارات القديمة، ومشكلات أيديولوجية ؛ أهمها النزعة المركزية الأوروبية. فهناك نزوع راسخ في التقاليد الغربية الأكاديمية للتعامل مع المعرفة على أنها نتاج حصري للغرب؛ سواء في حقبته القديمة (اليونانية والرومانية)، أو في حقبته الحديثة (الأوروبية والأمريكية). وتتجلى هذه النزعة أشد ما تكون في كتب تاريخ العلم، حيث تتجاهل الكتابات المؤرخة للعلوم الإسهامات غير الغربية، أو تقلل من تأثيرها، أو تقدمها بوصفها خلافية وغير مؤكدة.

○ سؤال : في كتابكم : استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي، خطب الرئيس السادات نموذجا، قدمتم مدخلا حول تطور الخطابة السياسية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين ؛ هل لكم أن ترسموا لقراء المجلة الخطوط العريضة لهذا التطور ؟

● جواب : هناك تأريخات عديدة للخطابة العربية، وهي تركز عادة على حياة الخطباء، ومناسبات الخطب، وآثارها. لكنني قررتُ في هذا الكتاب أن أكتب تاريخًا مغايرًا ؛ أؤرخ فيه، لتطور وسائط تداول الخطب، وأثرها في تطور بنية الخطب، ووظائفها. فرصدت التحول من الوسائط المقروءة إلى المسموعة والمرئية، كما عالجتُ أثر تحولات الجمهور في تغير الخطابة، ثم حاولتُ تتبع أثر التحولات الاجتماعية والسياسية في ازدهار أو اندثار الخطابة السياسية. وهي مسارات ربما لم تحظ باهتمام كبير من الباحثين، وأظن أن مساهمتي في هذا المجال لم تتبلور على نحو مُرضٍ بعد.

○ سؤال : تناولتم في هذا الكتاب ظاهرتين يتميز بهما الخطاب السياسي العربي. الأولى هي الخطاب الأبوي للحاكم العربي، وقد حللتم هذه الظاهرة من خلال التركيز على مجموعة من الاستعارات التي يستخدمها هذا الخطاب. كيف يتأسس هذا الخطاب الأبوي ؟

● جواب : يتشكل الخطاب الأبوي بواسطة أنساق من الرموز والعلامات اللغوية وغير اللغوية والطقوس التي ترسخ سلطة القبول الطوعي والإذعان المقبول. وقد اقترحتُ في كتابي أن للبلاغة دورًا رئيسًا في تشكيل الخطاب الأبوي، وقمتُ بتحليل مدونة ضخمة من الاستعارات؛ بهدف كشف كيفية تشكل هذا الخطاب الأبوي استعاريًا، ووظائفه، مستفيداً من نظرية الاستعارات التصورية (المفهومية) ونظرية المزج الاستعاري.

○ الظاهرة الثانية التي ركزتم عليها في هذا الكتاب هي توظيف الخطاب السياسي للنصوص الدينية. وقفتم عند هذه الظاهرة من خلال تحليل التناص وما سميتموه «التضفير

الخطابي». ماذا تقصدون بهذا المفهوم؟ وما الدور الإجرائي الذي يقوم به إلى جانب التناص في تحليل التوظيف السياسي للنصوص الدينية؟ وما العلاقة بين المفهومين؟

- جواب : مصطلح «التضفير الخطابي» هو الترجمة التي وضعتُها لمصطلح interdiscursivity، ويشير إلى ظاهرة متغلغلة في الخطابات الإنسانية هي التداخل بين الخطابات التي تنتمي إلى مجالات محددة من الخبرة البشرية، مثل الخطاب الديني، والسياسي، والرياضي، والتعليمي .. إلى آخره. وقد عالجتُ الوظائف التي يُنجزها التضفير بين الخطابين الديني والسياسي في عينة كبيرة من الخطب السياسية المصرية. والتضفير الخطابي هو نوع من العلاقات النصية التي يشير إليها مصطلح التناص. فالعلاقة بينهما هي علاقة الجزء (التضفير الخطابي) بالكل (التناص).

- سؤال : قمتم في كتاب : بلاغة الحرية : معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، بتصنيف لخطاب ما سمي بـ«الربيع العربي» انطلاقا من الحالة المصرية، كما وقفتم على لافتات الاحتجاج والهتافات والنكات والأغاني... وحلّلتم خطب حسني مبارك ومحمد مرسي وبيانات المجلس العسكري، وتناولتم أساليب الإقناع في خطاب الدعاية الانتخابية. ما أهم الخلاصات التي وصلتم إليها ؟ وهل لكم أن توضحوا للقراء الكرام كيف يمكن اعتبار بعض ما تناولتم بالتحليل في هذا الكتاب (الهتافات مثلا) ضمن انشغالات البلاغة الجديدة ؟

- جواب : يُحلّل كتاب بلاغة الحرية مدونة ضخمة من خطابات الربيع العربي، تتضمن خطبًا سياسية، وبيانات عسكرية، ولافتات، وهتافات، ومناظرات، ودعاية انتخابية، وجرافيتي، ونكت، وتسميات، وبرامج تلفزيونية، ومرافعات قضائية. ويوظف الكتاب عدّة كبيرة من إجراءات التحليل والمفاهيم والمصطلحات المأخوذة من عدة حقول معرفية. فيما يتعلق بكيفية تحليل هذه المدونات تحليلا بلاغيًا، إذا نظرت إلى الهتاف، مثلا، سوف تجد أنه في الأصل نوع بلاغي ينطوي على قيم صوتية، مثل السجع والجناس والتوازي، وبيانية مثل التشبيه والاستعارة، وتركيبية مثل الحذف والتكرار والمقابلة، وأدائية، مثل النبر والتنغيم والإنشاد الفردي أو الجماعي، وسياقية، مثل الوسيط والجمهور ..وغيرها. هذا النوع البلاغي لم يحظ بعناية حقيقية من دارسي البلاغة؛ لأنه جزء من خطابات الحياة اليومية التي هُمشت لزمن طويل. لكن بلاغة الجمهور تضعه في بؤرة اهتمامها مع أنواع أخرى، وتدرس بنيته ووظائفه وسياقات تداوله، وتفاعلاته الخطابية وآثاره.

- يمكن أن نعتبر كتابكم : الخطابة السياسية في العصر الحديث : الوسيط المؤلف الجمهور، نقلة في مسار مشروعكم، بتناولكم لتعليقات الجمهور على الخطب السياسية في اليوتوبYou Tube، وهي سابقة في تاريخ البلاغة العربية؛ فهل توافقوننا الرأي في هذا الاستنتاج ؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما النتائج التي توصلتم إليها ؟

- جواب: نحن نحيا زمن تحولات جذرية في الفضاء العام؛ أحد أبرز هذه التحولات يَخُص قوة الخطابات الجماهيرية المتداولة في الفضاء الافتراضي. وقد أطلقتُ على عصرنا تسمية «عصر استجابات الجماهير»، انطلاقًا من تقديري لخطورة هذا التحول. إن تعليقات الجمهور على اليوتيوب، أو الصحف الإلكترونية، أو الفيسبوك، أو تويتر، تشكل مدونة بلاغية شديدة الضخامة والثراء، تحتاج إلى تطوير آليات تحليل بلاغية ناجعة، وأظن أن دارسي البلاغة العربية يمكن أن يقدموا إسهاماً مهماً في هذا الشأن، ودراساتي حول هذا الموضوع، سواء في كتاب الخطابة السياسية أو بعض الدوريات العربية، هدفها ارتياد هذا الطريق، وتعبيده أمام البلاغيين العرب.

- سؤال : تحدثتم في كتابكم الأخير : الخطابة السياسية في العصر الحديث وكذا في كتاب استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي، عما أسميتموه ب«معضلة الكاتب الخفي» ؛ فماذا تقصدون بالكاتب الخفي ؟ وما الفائدة التي يجنيها البحث البلاغي من دراسته ؟

- جواب : الكاتب الخفي هو شخص، أو مجموعة، أو مؤسسة؛ تقوم بإنتاج خطابات عمومية، مثل الخطب الرئاسية أو الإعلانات. وأعتقد أن دراسة إنتاج الخطاب تمثل حقلاً بحثيًا جديدًا في الدرس البلاغي العربي. فقد اعتاد البلاغيون أن يدرسوا الخطابات النهائية، وليس عمليات إنتاج الخطاب، بما تتضمنه من نصوص مثل المسودات أو البروفات الأولى، وعمليات تفاوض تواصلية مكثفة. وقد حللتُ بشكل دقيق نماذج من التفاوض بين الرؤساء المصريين وكتّاب خطبهم حول المفردات والتراكيب والجمل والمعنى والصياغة والأداء، ودور هذا التفاوض في تشكيل الخطاب السياسي المصري. وأظن أن هذه المنطقة تحتاج إلى مزيد من البحوث ؛ لأنها تطرح الكثير من الإشكاليات الجديدة.

- سؤال : قمتم بترجمة بعض الأعمال بانفراد أو بالاشتراك، وقمتم بمراجعة بعض الترجمات والتقديم لها، ما دور العمل الترجمي في تجديد البلاغة العربية وتوسيع مجال اشتغالها ؟

- جواب : الترجمة جسر لعبور المعارف، والبلاغة العربية مدينة لهذا الجسر ببعض الفضل. فصحيفة بشر بن المعتمر، وكتابا الخطابة والشعر لأرسطو، وغيرها، كانت حاضرة في الوعي البلاغي العربي منذ بواكير النشأة. وما زال تأثير الترجمة ممتداً، بفضل الطفرة الهائلة التي حققها الدرس البلاغي في أوروبا وأمريكا منذ ستينيات القرن العشرين. وبشكل شخصي أؤمن بأن التعرف على المنجز البلاغي الراهن في ثقافات ولغات أخرى ما زال من الأهمية بمكان، على الرغم من تبلور تقاليد بحثية عربية. وتتعزز هذه الأهمية حين يتعلق الأمر بطموحات تحديث

البلاغة العربية، إذ إننا سُبقنا بأشواط بعيدة في هذا الاتجاه. وعلى سبيل المثال، فإن القليل من الدراسات العربية تُنتج في تيارات مهمة في الوقت الراهن مثل البلاغة المرئية أو بلاغة العلم. لكننا نحتاج – أيضاً – إلى إتاحة أعمالنا للباحثين غير العرب؛ فهناك دراسات عربية كثيرة تقدم إسهامات أصيلة، يمكن أن تطور الدرس البلاغي العالمي.

○ سؤال : وأنتم تمارسون فعل الترجمة، وتعانون في نقل المعنى إلى اللغة العربية، وإيجاد المصطلح المناسب لذلك؛ ما أهم الصعوبات والعوائق التي واجهتكم، إن وُجدت، في هذه العملية ؟

● جواب : الترجمة نشاط مضن ؛ فالكتاب المترجَم يشبه بيتًا باذخ التفاصيل، عميق الأساسات، يتصدى المترجم لبناء شبيهه في بقعة أخرى مغايرة. ومن ثمّ، فإن كل ترجمة تواجه، بدرجة أو أخرى، تحديات التوطين. ولعل أهم المشكلات هي توطين المصطلحات؛ وهذا مشكل حاسم في علاقة البلاغيين العرب بالبلاغات غير العربية؛ وهي ليست مشكلة جديدة، لكنها لا تزال خطيرة؛ فالنظرية البلاغية المعاصرة تقترض كماً كبيراً من المصطلحات الجديدة التي تنتمي إلى حقول معرفية مستحدثة مثل السبرنطيقا والعلوم المعرفية وغيرها. وهي مصطلحات لا توجد لها مقابلات عربية مستقرة. لقد جعلتني السنوات التي قضيتها في ترجمة موسوعة أكسفورد في البلاغة، بمعية نخبة من الأساتذة العرب، أكثر وعيًا بإشكاليات المصطلح البلاغي، وأكثر حساسية تجاهها. وأظن أن الأرض الآن مهيأة لإنجاز عمل حاسم في هذا الشأن، وقد تباحثتُ بالفعل مع عدد من الزملاء في المغرب وتونس ومصر بشأن إمكانية إنجاز معجمين للمصطلح البلاغي؛ أحدهما معجم سياقي للمصطلح البلاغي العربي؛ يسد الفجوات القائمة في المعاجم المتاحة حاليًا مثل معجم أحمد مطلوب وبدوي طبانة، وثانيهما معجم بلاغي ثلاثي اللغة (عربي–إنجليزي–فرنسي)، يُخصّص لمصطلحات البلاغة المعاصرة. وقد نشرتُ بالفعل دراسة تقدم تصورًا لطريقة العمل في المعجم الأول، وآمل أن يجد المشروعان طريقهما إلى النور قريباً.

○ سؤال : ختاماً، لا شك أنكم تلاحظون أن جهود الباحثين من أجل تجديد البلاغة العربية مشتتة، مما ينعكس سلبا على الدرس البلاغي العربي الجديد وعلى مشروع البلاغة العربية الجديدة، ولا شك كذلك أنكم تستشعرون الحاجة إلى تنسيق الجهود وخلق قنوات للتواصل والتعاون. كيف تنظرون إلى هذا الوضع ؟ وماذا تقترحون لتجاوزه ؟

● جواب : معكم كل الحق، نحن بحاجة إلى تنسيق الجهود، حتى تتراكم المنجزات. ومع ذلك، فإن حظ جيلنا أفضل من أسلافنا؛ بفضل تقنيات التواصل. وأظن أن تشكيل رابطة للبلاغيين العرب يمكن أن تعزز من هذا التواصل. وأعتقد أن مجلة البلاغة وتحليل الخطاب يمكن أن تشكل

نقطة تجمع لبلاغيي العالم العربي، ويمكن أن تحمل على عاتقها تأسيس هذه الرابطة، بالتعاون مع ممثلين في الأقطار العربية.

○ أستاذ عماد، نشكركم الشكر الجزيل على تفضلكم بالجواب على أسئلة المجلة، ونتمنى أن نسهم جميعا، كل من موقعه، في الخروج من هذا الوضع وأن نكون جسرا يربط بين الباحثين من أجل بلاغة عربية جديدة.

● **جواب : بل الشكر لكم على أسئلتكم العميقة والدقيقة والشاملة. تحياتي لقراء مجلتكم الغراء في بقاع العالم العربي./.**

صدر حديثا

